"الله، حيث الجرح؟"

قرأت لك بقلم المطران سابا

(الله، حيث الجرح؟ للراهبة سلوانا فلاد سيباستيان للنشر ٢٠٢٢)

الأم سلوانا وجهٌ مستنير. إنها شاهدٌ من عصرنا على ما تفعله النعمة الإلهية، في من تسكن فيه هذه النعمة، ويكون منفتحاً على إنسان وعلوم عصره، فيعرف كيف ينتقي المناسب منها.

وُلدت الأم سلوانا خلال الحرب العالمية الثانية، وتحديداً في العام ١٩٤٤. اختبرت في صباها آلاماً أساسية من جرّاء نقص معنى الحياة، وفراغ النفس الداخلي وجفافها، فسعت إلى مواجهتها. وبعدما اكتشفت المسيح اختبرت عمل نعمة الله بواسطة الصلاة ومعرفة الذات، فتأكدت من أنّه كان يرافقها في أوجاعها وينتظرها، وأنّه غفر لها، والأهمّ أنّه يحبّها بواسع محبّته. فكّرست حياتها له، وسعت إلى أن تحبّه بشغفٍ وتوقٍ بلا حدود، من كل قلبها. كما وجد قلبها المجروح والمشفيّ بنعمة الإيمان، في كتابات القدّيس سلوان الآثوسي تعزيةً كبيرة، حتّى قال فيها ثيوفان ميتروبوليت مولدوفا الحالي: "قدّم القدّيس سلوان لها صورة الصلاة الحقّة ، وأيقونة حبّ الله والقريب، والقوّة للنهوض من جحيم اليأس."

درست الفلسفة وعلّمتها لسنة واحدة. لتنخرط بعد ذلك في نشاطات اجتماعية مع الشبيبة. دخلت مرحلة اختبار الحياة الرهبانية في العام ١٩٩٩، وتابعت نشاطاتها الخيرية والاجتماعية مركّزةً على الأولاد المتشردين ومقّدمةً الإرشادَ للشبيبة. صارت راهبة في العام ٢٠٠١، و ببركة المطران ثيوفان، أسّست مركزَ رئيسَي الملائكة ميخائيل وجبرائيل للتشكيل والمشورة، وعملت منّسقةً له. انتقلت مع المركز إلى مدينة ياشي في العام ٢٠٠٨. وأسّست مع عدد من الراهبات دير القديس سلوان الآثوسي في مدينة ياشي، رومانيا.

قدّمت أحاديث مهمّة في الكثير من المؤتمرات وورش العمل، التي عُقدت في رومانيا وخارجها؛ منها العلاقات بين الشبيبة، مراحل الحبّ، العائلة والمجتمع المعاصر، مسّببات اكتئاب الإنسان المعاصر، معرفة الذات، الحياة الروحية.... إلخ.

رقدت في الرب في العام ٢٠٢١.

****

إنّ توضيحاتها للانثروبولوجيا المسيحية لجذّابة جداً. عبر توصيفاتها المتقَنة للخبرة النفسية، يكتشف القرّاء باندهاش مدى تآلفهم مع رؤاها. فهي تستعمل مفاهيم من العلم الحديث لتسهّل فهم الخبرات العامة المشتركة التي بإمكان كلّ القراء التماهي معها.

تميّز ما بين الحياة لمجرّد الاستمرار، والحياة باعتبارها هبة من الله. فالحياة التي خلقنا الله من أجلها تصير ممكنة عندما نفتح أنفسنا لنعمة الله بالصلاة وتحقيق الوصايا. كما تولي أهمية لاكتشاف الله باعتباره شخصاً حيّاً وفاعلاً في كلّ لحظة في نفس وحياة المسيحيين الأرثوذكسيين. تقول: "إنّ الله مغروم بنا."

يضمّ كتابها "الله، أين الجرح؟" محاضر ثلاثة مؤتمرات عُقدت في ألمانيا في العام ٢٠١٢.

تعالج في هذا الكتاب الصعوبات الشائعة التي يختبرها الانسان المعاصر في علاقته مع الله: ما الذي يمنعه من استقبال نعمة الله أو حتّى الرغبة فيها؟ ما الذي يحفظ النعمة الإلهية وكيف تتفّعل فيه؟ تتطرّق إلى القلق والتوتر والاكتئاب والصدمات والانتحار والعلاقات والجنس وعواقب الصدمات الموروثة من الأهل والأجداد، تلك التي لا تزال من دون حلول.

تتكلّم على أثر الصدمات المخزونة في الأعماق (اللاوعي)، والتي ثّمة فلسفة تقول بعدم إثارتها والعبور عنها. تقول إنّ الأفكار الناشئة عن هذه الآثار المكبوتة تسّمم النفس، وتالياً "علينا أن ننتبه إليها وإلى ما يكمن تحتها، الى ما نشعره بواسطتها، ونحتاج إلى أن نقدمه إلى الرب من أجل الشفاء منه". تسّمي تقدمتنا هذه لله بـ "جسد الصلاة."

تقول: "إنّ المشاعر هي النار والأفكار هي قطع الحطب؛ المواد القابلة للاشتعال. لننتبه إلى أنّ الشيطان لا يهاجمنا من خلال مشاعرنا. لا تدخل الخطيئة إلينا من خلال الحزن والخوف والكراهية والغرور المُعَبَّر عنها بالمشاعر. ...هذه طاقات مرض النفس المبلّوة، وهي تنفجر وتخرج من طبيعتنا الساقطة من دون أن نكون قادرين على السيطرة عليها وضبطها بواسطة قوّة إرادتنا. تأتي الخطيئة من خلال الأفكار الشريرة التي تعدنا بالنجاة من العذاب التي تسّببه هذه المشاعر، والتي تقود إلى الشرّير، والى كلمات شريرة وأفعال إجرامية."

"ثّمة إدمانٌ على المشاعر السلبية كما هو الإدمان على الكحول، ولذلك يكون الشفاء صعباً" (ص ٩٣).

"المهمّ بالنسبة لي"، والكلام لها، "هو ألم الإنسان الذي أمامي. عندما أتواصل مع ألم الإنسان الآخر أستطيع أن أحّوله ليصير "جسد الصلاة" بالنسبة له. يتردّد ألمُه فيَّ، يؤذيني من دون أن يصبح ألمي، لكنّي أختبره (أشعر به)، وهذا ما يجعل صلاتي له ممكنة تماماً كما أصلّي لأجل لنفسي، وكما أفعل عندما أتأذى في داخل ذاتي" (ص ٩٥).

تشدّد، في كتابها، على أهمية الإصغاء وحاجة الإنسان المعاصر إلى من يسمع له. كما تنادي بضرورة عدم كبت آثار الصدمات التي يتعرّض الإنسان لها وعلى فائدة تقديمها لله. تقول في هذا السياق: "عندما نكبت آثار الصدمة ولا نقدّمها لله فإنّنا نساهم في نقلها لأولادنا وأحفادنا" (ص١٠١). "يجب أن نحفظ في أذهاننا أنّ كلّ ولدٍ يصل إلى العائلة هو "مخلِّصٌ" محتمَلٌ لها ولأنسالها."

تعتبر أنّ سرّ الأرثوذكسية يكمن في تحويل كلّ ما هو إيّانا، الذي لدينا من الله، ليصير ما يعود إلى الله. القلب البشري هو المختَبَر الذي فيه تتحّول الطاقات المخلوقة إلى طاقات إلهية – بشرية، وذلك بقوّة وفعل النعمة.

كتاب جدير بالقراءة، خاصة لكل من يتعاطى الشأن التربوي والإرشادي.